محاكمة العقل في فلسفة نتشه

The trial of reason in the philosophy of Nietzsche

بن العايب مسعود

طالب دكتوراه

جامعة تونس

Benmessoud32@gmail.com

ملخص:

لقد أُعتبر العقل بمثابة السلطة المطلقة في أغلب مجالات المعرفة في الفلسفة الحديثة، فهو الأساس الوحيد للمعرفة في ديكارت، وهو المشَرّع في فلسفة كانط الأخلاقية، وهو الذي يُسَيّرُ العالَم. ومن ثمّة كان تاريخ العالَم هو تطور للعقل في فلسفة هيجل.لكنه أصبح موضوعاً للمحاكمة مع بداية الفلسفة التجريبية الإنجليزية، وخاصة مع ظهور فلسفة "نتشه"، وبدأ يتخلّى عن سلطته تدريجيا حتى أصبح العقل في الفلسفة المعاصرة موضع سؤال.

الكلمات المفتاحية : عقل، محاكمة، فلسفة نتشه ، الجينيالوجيا

كلمات مفتاحية: اللعب، الألعاب الالكترونية، سلوكيات الأطفال، لعبة الحوت الأزرق، ضحايا الحوت الزرق.

Abstract:

The mind is considered as an absolute power in all fields of knowledge in modern philosophy. It is the only basis for knowledge in Descartes's philosophy, the legislator in Kant's philosophy, and It rules the world, hence world history is the progress of reason in Hegel's philosophy. But with the beginning of English experimental philosophy, it has became a subject of trial, andespecially with the emergence of the philosophy of " Nietzsche", then it gradually began to give up his power until the mind is becoming a great question in the contemporary philosophy.

Keywords :mind;trial;philosophy of Nietzsche

1

. مقدمة :

قد لا يكون من المفيد الخوض في مناقشة طبيعة العقل وماهيته منذ بزوغ الوجود البشري الأول، إذ ما هو متعارف عليه أنّه لم يكن مفهوماً أو حتّى موضوعاً للتفكير، بل كل ما في الأمر أنّه ملكة طبيعية أو فاعلية بشرية للتفكير بها في مجالات الحياة الواقعية للإنسان، لكن مع تطور الحياة الاجتماعية وبداية التفكير في الإنسان، تحول العقل من ملكة غير مُفكَّر فيها إلى موضوع يتسم في بدايته بالغموض، ومع ظهور التفكير الفلسفي برزت مفاهيم عند الإغريق تتعلق بالعقل منها" اللوغوسLogos " ، "النوس"Nous"،الجوهر"،"القانون الكلي"، وكلّها مدلولات تتعلق بالميتافيزيقا، وكأن الميتافيزيقا حاضنة لولادة هذا المفهوم. في العصور الوسطى ارتبط العقل باللاهوت، لتصبح إشكالية العقل والنقل صلب ما ناقشته الفلسفة في تلك العصور، وهل هناك عقل إلهي كلّي، أم عقول بشرية محدودة وفقط؟ مع تطور الفكر الفلسفي وتعدد مشاربه في العصر الحديث برزت مسألة قدرة العقل وسلطته المطلقة، وقدسيته، وجوهريته من جانب، ونسبيته، ومحدوديته من جانب ثان. لتبرز لنا مشكلة العقل كسلطة معرفية، وأخلاقية، وسياسية، وحتى دينية، بداية من القرن السادس عشر وظهور ما يُعرف بالعقلانية الحديثة مع ديكارت، أوبعبارة أكثر تحديداً مع عصر الحداثة بمفهومه العام، والعقل كموضوع للمساءلة ثم للمحاكمة بداية من النقد الداخلي، أو المحاكمة الذاتية للعقل، وانتهاءً بمحاولة تجاوزه وحتى الدعوة إلى إلغائه مع مفكري وفلاسفة ما بعد الحداثة .

وسنناقش في هذا المقال الإشكالية الآتية: كيف تمت محاكمة العقل من طرف نيتشه؟

1 -محاولة لتحديد المفهوم:

تكاد تتفق مختلف المعاجم اللغوية والفلسفية على استعمال العقل بمعنى أنّه ملكة، فمن المرجح أنّ أقدم معنى لكلمة عقل Ratioيتعلق بـ Ratusمن Reor التي تعني: ظن، اعتقد، وفكر، وأُدخل اللفظ في اللسان الفلسفي مع لوكريس و شيشرون، وصار منذ ذلك العصر متداولاً جداً بمعنى ملكة( ). وقد حصر "لالاند" في معجمه الفلسفي مختلف المعاني التي تُعطَى للعقل بوصفه ملكة.فهو أولاً، يطلق تارة على الملكة العقلية أساساً القادرة على تنظيم الاختبارات والأدلة وإقامة البراهين. وتارة أخرى، على ملكة تقرير المطلق، ومعرفة الكون كما هو، وتقديم الأسس وبلوغ الحقائق الضرورية. وثانياً، بوصفه ملكة الحكم السليم، كما يذكر ديكارت في المنهج، أي ملكة تمييز الخير والشر، الصحيح والفاسد بشعور فطري تلقائي، وبهذا المعنى يتعارض العقل إمّا مع الجنون و إمّا مع الانفعال، بحيث لا يحسن الإنسان المجنون أو المنفعل الحكم

خلافاً للقوانين المنطقية. وثالثاً بوصفه ملكة طبيعية تتعارض مع المعرفة المنزلة أو الإيمان، لكون الإيمان حقيقة منزلة بكيفية استثنائية، في حين أن العقل هو تسلسل الحقائق التي يمكن أن يبلغها الفكر البشري بلوغاً طبيعياً دون عون من أنوار الإيمان. رابعاً، بوصفه منظومة مبادئ قبلية تتعارض مع المعرفة التجريبية، لا تتوقف حقيقتها على التجربة، ويمكن صوغها منطقياً، ونعرفها معرفة عقلية. وأخيراً، ملكة معرفة الواقع والمطلق بنظرة مطلقة مقابل ما هو ظاهري .( )

للفظ العقل في اللغة الإنجليزية منذ وقت طويل وإلى حد الآن معاني واستعمالات عديدة وواسعة، مترابطة ببعضها البعض وغالباً ما تكون معقدة وغير واضحة( ). ويذكر "جون لوك" في كتابه "الفهم البشري" بعضاً من هذه المعاني، فهو يشير إلى مجمل المبادئ الواضحة والحقيقية، وإلى الاستخلاص من هذه المبادئ لنتائج معينة.، وإلى العلّة، وأخير إلى اختلاف الإنسان النوعي الذي يفصله عن الحيوان.

يتعدّد مفهوم العقل بتعدّد المناحي التي يقال بها اللفظ، وقد ذكر الفارابي بعضاً من هذه المناحي في كتاب معروف له بـ" رسالة في العقل"، فقد يشار به إلى الشيء الذي يقول الجمهور في الإنسان أنّه عاقل، و "مرجع ما يعنون به هو إلى التعقل...إنّما يعنون بالعاقل من كان فاضلاً وجيّد الروية في استنباط ما ينبغي أن يؤثر من خير أو يتجنب من شر"( ). والعقل الذي يردّده المتكلمون فيقولون هذا ممّا يوجبه العقل أو ينفيه العقل فإنّما يعنون به المشهورفي بادئ رأي الجمهور( ). أمّا العقل الذي يذكره أرسطو في كتاب البرهان فإنّه إنّما يعني به قوة النفس التي بها يحصل للإنسان اليقين بالمقدمات الكلية الصادقة الضرورية، لا عن قياس أصلاً ولا عن فكر، بل عن طريق الفطرة والطبع ...هذه القوة جزء ما من النفس يحصل لها المعرفة الأولى، وتلك المقدمات هي مبادئ العلوم النظرية( ). أمّا العقل الذي يذكره في المقالة السادسة من كتاب الأخلاق فإنّه يريد به جزء النفس الذي يحصل فيه بالمواظبة على اعتياد شيء، والقضايا التي تحصل للإنسان بهذا الوجه هي مبادئ للمتعقل..فيما شأنه أن يستنبط من الأمور الإرادية العملية( ) وهذا العقل يتزيد بالاكتساب. أمّا العقل الذي يذكره في كتاب النفس فإنّه يجعله على أربعة أنحاء، عقل بالقوة وعقل بالفعل وعقل مستفاد والعقل الفعال.( )

أما العقل عند "ديكارت" فهو ملكة الحكم السليم، أي ملكة تمييز الخير والشر، الصحيح والفاسد بشعور داخلي فطري وتلقائي( ).وذهب "بوسويه" إلى أنّ الروح والعقل من مصدر واحد، فطالما أن الإدراك العقلي يبدع ويخترق يُسمّى روحاً، وطالما أنّه يوجه إلى الحق الخير، فإنّه يدعى عقلاً وحكماً، والعقل طالما أنّه يجنبنا شر الإنسان وداءه الحقيقي وهو الخطيئة، فإنّه يدعى الوعي"( ). هذه الأخيرة هي منظومة مبادئ قبلية لا

تتوقف حقيقتها على التجربة، يمكن صوغها منطقياً، ونحن نعرفها معرفة عقلية. فمعرفة الحقائق الضرورية والأزلية هي ما تميّزنا عن البهائم العادية وتجعلنا نملك العقل والعلوم، وذلك يرفعنا إلى معرفة أنفسنا ومعرفة الله .

قد يكون ثمّة مجالان للتفريق بين وظيفتين للعقل طالما أنّ هناك تحلّيين لنشاط الفكر، وربّما نلمس هذا من التعاريف المقدَّمة منذ أرسطو: في مجال النظر العقلي، تنسيق المعرفة وتنظيمها، وفي المجال العملي، تنظيم السلوك. ويرتبط مصطلح العقل بعدّة مفاهيم تنبثق من جذر "العقل"، وهي مفاهيم يختلف حولها مثل "العقلانية" و "العقلي". و العقلانية وفق تصور "إدغار مورغان" رؤية للعالم تؤكد على الاتفاق الكلي أو الاتساق بين ما هو عقلي وواقع الكون، فهي إذن تقصي من الواقع كل ما ليس عقلياً، وكل ما ليس ذا طابع عقلي. أما من الناحية الأخلاقية فتعني أن أفعالنا يمكن أن تكون عقلانية ويجب أن تكون كذلك في مبدئها وسلوكها وغايتها. أما التبرير العقلاني فإنشاء رؤية كلية عن الكون انطلاقاً من معطيات جزئية، أو من مبدإ وحيد. معنى هذا أن مغامرة العقل منذ القرن السابع عشر قد أنتج أشكالاً من العقلانية و التبرير العقلاني.

يمكن التمييز إذن بين العقل المعبّر عن نفسه أساساً في الخطابات مثل العقل المنحدر من التراث الإغريقي، إذ كان عقلا خطابياً حالاً في اللغة انطلاقاً من تحليل أشكال الحجاج الشفوي والقواعد المتحكمة في استعمال اللغة، وهو عقل تبريري لفظي إن لم نقل لاهوتي، وعقل تجريبي هو الذي يعتنقه العلم ، وهو عقل إشكالي لا يتقدم إلا بفضل التساؤل المستمر في الواقع والنظريات وحتى في مبادئه ذاتها. انطلاقاً من تحليل أشكال الحجاج الشفوي والقواعد المتحكمة في استعمال اللغة، وهو عقل تبريري لفظي إن لم نقل لاهوتي، وعقل تجريبي الذي يعتنقه العلم وهو عقل إشكالي لا يتقدم إلا بفضل التساؤل المستمر في الواقع والنظريات وحتى في مبادئه ذاتها. ولفهم سطوة العقل وجب علينا تتبع تجلياته في الفلسفة الغربية الحديثة.

الحقيقة أن محاكمة العقل بدأت أولا مع "كانط" في العصر الحديث، لكنها محاكمة ذاتية تمت من داخل العقل، أي إخضاع العقل للنقد الذاتي بواسطة العقل خلافا للفلسفات اللاحقة التي ستحاكم العقل بعوامل خارجية مثل إرادة القوة عند "نتشه" أو "طبيعة الحياة" عند "برغسون". لذلك يصرّح كانط في تصدير الطبعة الأولى لكتابه" نقد العقل المحض" أن على العقل أن يقوم بأشق مهماته و ينشئ محكمة تضمن له دعاويه المحقة، و تخلّصه في ذات الوقت من كل الإدّعاءات غير المؤسسة، بناء على قوانين خالدة و ثابتة. وهذه المحكمة هي نقد العقل المحض نفسه. وعلى ذلك فإن نقد العقل يؤدي في النهاية و بالضرورة إلى علم بعيدا عن كل شك. على أنه ينبغي

أن يُفهَم من النقد هنا: الفحص عن قدرة العقل بوجه عام فيما يتعلق بكل المعارف التي يطمح إلى تحصيلها مستقلا عن كل تجربة. يقول كانط:" ...إلا أني أفهم بذلك نقدا، لا الكتب و السيساتيم بل لقدرة العقل بعامة بالنسبة إلى جميع المعارف التي يمكن أن ينزع إليها بمعزل عن أي تجربة، و بالتالي، الفصل في مسألة إمكان أو لا إمكان الميتافيزيقا بعامة. و تعيين مصادرها و نطاقها و حدودها، وكل ذلك بناء على مبادئ"( ). و فائدة هذا النقد هو تطهير العقل و حمايته من الوقوع في الخطأ. ولا يهدف إلى توسيع معارفنا بل إلى تصويبها فقط. إنه يعني أن يقوم العقل بعملية النقد معتمدا على ذاته فقط، ودون الإستعانة بالتجربة أو الملاحظة. و بمعنى ما هو الفحص عن نظام الأسس القبلية التي تتضمن صحة التجربة. و الفلسفة الترنسندنتالية(المتعالية) هي التي تتكفل بتحقيق علم إمكان المعرفة التركيبية القبلية، "ترسندالية" هي كل معرفة لا تهتم بالموضوعات بقدر ما تهتم بطريقتنا في معرفة الموضوعات من حيث يجب أن تكون ممكنة قبليا"( ).نقد العقل المحض إذن هو امتحان لقيمة العقل ذاته، من حيث استعماله النظري الذي يضع الحقيقة مطلبا أساسيا له، وغاية قصوى له. و نقد العقل العملي هو امتحان لقيمة العقل من حيث هو أساس الفعل و السلوك، وغايته ثبوت الأخلاقية. لذلك أراد كانط لفلسفته النقدية هذه أن تتجاوز المذاهب التقليدية، "وإذا كان لابد من وصف يميّزها فإن شعارها الحقيقي أن الفلسفة هي تشريع العقل"( )، بل إن المهمّة الأساسية لهذه الفلسفة النقدية هو السعي إلى الفحص عن العقل المحض من أجل بيان طبيعة المعرفة، خاصة و أن الميتافيزيقا حسبه لا تزال في حالة من الشك و التناقض، بسبب غيابها كمشكلة ينبغي أن تُطرح على النحو الصحيح( )، و إن كان "هيوم" – حسب رأيه – أكثر من اقترب من حل هذه المشكلة( ). ولا يمكن أن تُحل هذه المشكلة إلا بالفحص عن الإستعمال المشروع للعقل، ومدى قدرته على تحقيق و تأسيس معرفة على درجة عالية من اليقين. أي توجيه البحث إلى كيفية اشتغال العقل في عملية تحصيل المعرفة. لذلك فإن كتابه "نقد العقل المحض" هو بحث في شروط إمكان تحقق علم يتكفل ببلوغ كل المعارف...إلخ

إن نقد العقل يؤدي في النهاية إلى علم، على خلاف استعماله الدوغمائي الذي يؤدي إلى مزاعم لا أساس لها، بل يؤدي إلى ما هو أبعد من ذلك و هو الريبية. و بمعنى أكثر وضوحا فإن مشكلة العقل ليست مع الموضوعات التي يتناولها بقدر ما هي مع المشكلات المنبثقة من طبيعته، أي أن عليه أن يعرف تمام المعرفة على قدرته بالنسبة إلى الموضوعات التي تُقدّمها التجربة حتى يسهل عليه تحديد نطاق وحدود استعمالاته خارج حدود التجربة. و لعلّ عدم انتباه الفلاسفة إلى هذه المسألة هو الذي

جعل الميتافيزيقا تصاب بالإفلاس العام، بعد أن كنا علقنا عليها طويلا آمالا جميلة.

2 ـ محاكمة العقل عند نتشه:

يميل نتشه إلى تقسيم الفلسفة اليونانية إلى مرحلتين: مرحلة الإبداع و العطاء الفلسفي، وهي التي سبقت سقراط، ويمثلها "هيرقليطس"، و"انكساغوراس"، "ديمقريطس"،و "طاليس" وغيره من فلاسفة أيونيا وإيليا الأوائل. وهؤلاء جميعا عاشروا للمعرفة فقط. وكان حوارهم رفيع المستوى، يميزه الجدّ و الخصوبة. أما المرحلة الثانية فيمثلها سقراط ومن بعده، وهي مرحلة انحلال وانحطاط. سادت فيها الفلسفات "الهجينة" التي تفتقد إلى الأصالة. ويعدّ أفلاطون أول هجين كبير لأن نظريته في "المثل" تجمع عناصر سقراطية، وفيثاغورثية وهيرقليطية( )، لذلك فهو لا يمثّل نموذجا صافيا. ويتعجب نتشه من جرْي الفلاسفة وراء المفاهيم العقلية المجردة. إنهم يلهثون وراءها دون توقف، وحينما ينكشف لهم عجزهم عن إدراك الحقيقية بواسطتها، يبدءون في البحث عن مبررات لتفسير كونها تنفلت منهم. و الأشدّ غرابة حينما ينادون بضرورة التحرر من وهم الحواس بحجة أنها تخدعنا، وينسون أن التاريخ كله ليس سوى إيمانا بالحواس، إذ هي التي تكشف عن الصيرورة و اللاثبات، وعن التحول والتغير، ومن ثم هي لا يمكنها أن تكذب أبدا.( )

يقدم نتشه نقدا جارحا للميتافيزيقا لأنها تصطنع قيما مزيفة، متعالية عن الواقع الإنساني، وتخفي عن الإنسان حقيقته بل حقيقة وجوده. ومن ثم تضفي على عقله أوهاما من شأنها أن تباعد بينه و بين الحياة. وتهيب به نحو قيم مزعومة خاطئة، هي أقرب إلى الأساطير منها إلى الواقع. إنها تشيّء له عالما آخر يسوده الكمال و الثبات والخير، وهذا عين الهذيان حسب نتشه. و الملاحظ هنا أن" النقد النتشوي" يختلف عن "النقد الكانطي"، فإذا كان مشروع "كانط" يؤلّه العقل و الإدراك، فإن نتشه على العكس من ذلك يوجه نقده إلى القيم، وإلى العقل لكن بأداة أخرى خارجية هي "إرادة القوة" كمبدأ خلاق و مبدع. وهو ما أصبح معروفا بالنقد الجينيالوجي. والجينيالوجيا هي بحث متواصل عن البدايات بكل ما تتسم به من تشتت وقبح و سخافة، إنها عمل مضاد للميتافيزيقا يروم إلى خلخلتها، وهدم قلاعها، والوقوف على ما تحاول إخفاءه من قبيل الهوامش، التفاصيل، الصراعات، وغيرها. ومجمل القول أن الجينيالوجيا "هي تتبع وتعقب مراحل نشأة وتطور القيم والمعايير الميتافيزيقية بالإحالة دائما إلى الشروط الوجودية و المصلحية المنتجة لها.( )"

ينصحنا نتشه في خطابه النقدي للميتافيزيقا و للتراث الفلسفي بأن لا نخلط بين شغّيلي الفلسفة والعلم، وبين الفلاسفة الحقيقيين. النوع الأول يعيش من الفلسفة، ومحور اهتماماته

صياغة أحكام من شأنها أن تبقي القيم القديمة، وترسخها، و"قد يكون "كانط" و "هيجل" أفضل من مثل هذا النوع"( ). أما النوع الثاني فيشمل الفلاسفة الحقيقيين القادرين على تشريع قيم جديدة، لأنهم يعتقدون أن المعرفة بالنسبة إليهم خلق و إبداع، وعلى جهدهم أن يُوجّه إلى نقد القيم السائدة، وخلق قيم جديدة تقتضيها الحياة. ويتأسف نتشه على أن تاريخ الفلسفة من "السقراطيين" إلى "الهيجليين" هو تاريخ خنوع و خضوع الإنسان، وتاريخ تبريرات، بل تاريخ نفي للحياة، وانتصار لحياة مريضة هي أقرب ما تكون إلى حياة العبيد منها إلى حياة الأشراف. وعلى ذلك كانت أفكار نتشه مُوَجّهَة تحديدا إلى الحضارة الغربية، التي سادها مبدأ" إنكار و تبخيس الحياة". على أن نفهم الحياة هنا بمعناها الأوسع، أي أنها المبدأ الكامن وراء الحضارة و المعرفة و السلوك. وهي أصل لكل قيم أخلاقية وفكرية و سياسية. فسيطرة "الروح الإنكارية" خلقت نمطا معينا من التفكير المضطرب الذي يسوده القلق و التوتر، تجلّى خاصة في "الهجانة" و الفوضى، و الشذوذ و التطرف الفكري، بين من يرْكن إلى المثالية المطلقة، ومن يتجه نحو اللاعقلانية، بين من يدعو إلى الفردية، ومن يدعوا إلى القومية أو العرقية أو غيرها. فلاغرو إذن "أن يصف نتشه الدول الحديثة بقرى النمل، تسود قادتها الخسة و الدونيّة والتهريج"( ). وما يزيد الأمر سوءا حسب نتشه هو أن الإنسان المثقف اليوم عدوّ للثقافة. لأن درجة انحطاطه جعلته ينزع إلى إنكار مرضه، و يشعر بالضيق و الغضب إذا ذُكّرَ بضعفه ونقصه. بل حتى الهواء الذي يتنفسه ملوث. وعنى ذلك أن المرض لم يسْر فقط في المظاهر الفكرية والثقافية، بل في جميع مجالات الحياة، ويضرب بجذوره في نمط الحياة اليومية، ليطال طريقة الكلام و اللباس و الذوق و الأكل وفي كل تجليات السلوك. وهنا نصل إلى نتيجة هامة وهي أن النقد النتشوي للعقل يروم إلى خلخلة أسس الميتافيزيقا الغربية، وتكذيب ادعاءاتها، ليس في مجال المعرفة و الأخلاق فقط بل أيضا في مجال الدين.و يرى أن الإنسانية عاشت إلى حد الآن على عبادة أصنام الفلسفة و الأخلاق معا. وآن الأوان كي نقدم هذا العقل للمحاكمة لكن ليس من داخل ذاته كما فعل كانط، لأن ذلك لم يكن إلا لمصلحة الدين،وإنما نحاكمه بالواقع، وبما تقتضيه إرادة الحياة. ومن ثم جاءت محاكمته أيضا للدين مُمثلا في الديانات المختلفة.

3 ـ محاكمة الدين في فلسفة نيتشه:

كان نيتشه يمتلكَ جرأةً كبيرة لم تتوفّر لدى فلاسفة كثيرين في عصره، وفي عصور قبله وبعده، فقد كان عدوًا للمسيحية واليهودية معا، مع العلم أن نيتشه لا يميز كثيرا بين المسيحية و اليهودية، لأنهما يعودان في الأساس إلى مصدر واحد. وليس صحيحا أن المسيحية جاءت لتهدم اليهودية وتتجاوزها، بل بالعكس هي نتيجتها ذاتها، وخاتمتها الضرورية و اللازمة لها( ).

المسيحي حسبه ليسَ سوى يهودي بعقيدةٍ أكثرُ انفتاحًا. على أن نقده لليهودية و المسيحية يعود، من جهة، إلى نقده للروح الدينية بوجه عام، باعتبار أن الأديان التي سادت حتى الآن تدخل في باب الأسباب الرئيسية التي كبّلت طراز الإنسان وأبقته على درجة متدنّية، إنها أفرطت في الحفاظ على الكثير مما كان يجب أن يهلك"( ). ويعود، من جهة أخرى، إلى تعلّقه بكل ما هو يوناني، فنمط الحياة اليونانية عنده أرفع بكثير من نمط الحياة المسيحية واليهودية، لأن العقائد اليونانية لم تقف في وجه نمو القوى الطبيعية في الإنسان على عكس ما هو في الديانتين .

يقارن نيتشه بين تصور الله في مختلف الأديان، و ينتهي إلى وجود اختلاف كبير بينها جميعا، مما يتحتم على الإنسان أن يقضي عليها برمّتها، غير أنه يحْمِل بوجه خاص على تصوّر الألوهية في المسيحية واليهودية، فهذا التصوّر مرتبط برغبة الإنسان في معاقبة نفسه ومرتبط بشعوره بالذنب، وهذه الرغبة والشعور تتجسم في فكرة الله ذاتها، فتصوره على نحو مضاد للإنسان تماما، وتنسب إليه من الأوامر ما يقف في وجه الطبيعة البشرية ويعوق سيرها التلقائي. ويؤكد نيتشه أن الإرتباط بين الأمرين ليس ضروريا، أي بين تصور الألوهية والحملة على الطبيعة البشرية، فهناك شعوب تصوّرت آلهتها على نحو مخالف تماما لفكرة الشعور بالذنب هذه. فعند اليونان مثلا يؤلّه الإنسان ما هو إنساني، و ربما ما هو حيواني فيه، وتختفي تماما فكرة الخطيئة و الذنب ، ولا يلوم نفسه ولا يحطّ من قدرها، كما هو الحال في المسيحية( ). يقول نيتشه:" المفهوم المسيحي عن الله، كإله للمرضى، الله كعنكبوت، الله كروح، هو واحد من المفاهيم الأكثر فسادا حول الله، التي شكّلت فوق الأرض، و بالإضافة إلى ذلك، لعلّه يمثّل المستوى الأكثر انخفاضا في مجرى التطور المنحدر لنمطية الآلهة. الله متدني ليصير مناقَضَة للحياة، بدلا من أن يكون تجلّيها الممجّد، و أزليتها الموطّدة. في مفهوم الله تُعلن وتذاع العداوة للحياة، وللطبيعة، ولإرادة الحياة. في الله يؤلّه العدم، وتُقدّس إرادة العدم"( ). وبذلك تكون الرؤية اليهودية التي هي في الأصل أساس المسيحية، قد خلقت عالما آخر مفارقا لعالمنا، وقد انتقلت عدواها لبقية الأديان، بغض النظر، عن مزاج الأنبياء والشعوب التي ينتمون إليها، فقد فُسّر العالم الآخر في اليهودية على أنه هروب من الاضطهاد في عالمنا.و اليهود هم الشعب الأكثر فرادة في تاريخ العالم: ذلك أنهم تجاه التساؤل عن الوجود أو العدم، قد فضّلوا باقتناع كلّي لا يتزعزع. الوجود بأي ثمن: وهذا الثمن كان جعل الطبيعة كلها زائفة، و تزييف كل ما هو طبيعي، وواقعي، وتزييف كل العالم الداخلي على ذات طريقة تزييف العالم الخارجي. هم قلبوا بالتدريج الدين، و العبادة، و الأخلاق، والتاريخ و علم النفس بطريقة لا يمكن علاجها، ومناقضة لقيمها الطبيعية"( ). إذن لا

يتردّد نيتشه في القول إن اليهود هم الشعب الأكثر شؤما في التاريخ"( ). لأنهم كانوا شعبا كهنوتيا بامتياز، تستبد بهم الكراهية لكل الأجناس الأخرى، و تحت يد الكهنة اليهود فقط، فإن الحقبة العظيمة من تاريخ إسرائيل تحوّلت إلى فترة انحطاط، النفي من مصر، والمصائب المتطاولة شُكّلت بهيئة عقاب أبدي للفترة العظيمة التي كان فيها الكاهن لا يساوي شيئا"( ). خاصة و أن الكهنة كانوا أكثر دهاءً، لما حوّلوا فكرة مخالفة الله، من معناها الحقيقي، إلى معناها الخاطئ، أي أنها أصبحت عندهم تعني مخالفة الكاهن والشريعة، بل صارت تُوصف بالخطيئة .( )"

كل كهنوت، في رأي نيتشه، هو ارتكاس إزاء الحياة، تقنية للسيطرة على إرادة الاقتدار التي تحرّكها وذلك تحت عنوان مريب "تربيتها" و "تهذيبها"، ولا يعني ذلك سوى "تدجينها" ومعاقبتها من الداخل: بتحميلها ذنب كونها هي نفسها، أي كونها"حية"، ذنب الحياة أو الحياة نفسها بوصفها ذنبا لا يغتفر. "الحياة" هي كل ما وجدنا عليه أنفسنا من حيوانية دفينة، من غرائز ودوافع وحريات و رغبات وآمال وطاقات و لذات وذكاء وحقوق، سابقة على الطبقة الإنسانية أو "المؤنسنة" و التي ندعوها "تخلّقا" لأخلاق أفضل أو "حسنى" أو "مثلى"( ). إذن رجال الدين أو الكهنة هم أوّل من صنع قيما مقدّسة بعيدة عن الواقع، وعن حياة الإنسان واعتبروا الخروج عليها خطيئة لا تُغتفر. وهم من ناصروا فكرة تقسيم العالم إلى عالم حقيقي وعالم غير حقيقي أو ظاهر، و لا يمكن أن يصدر هذا إلا بإيعاز من الإنحطاط، و لا يعتبر إلا بداية لحياة آفلة( ). بل إن عدوى هذا التقسيم جاست خلال جميع فروع العلوم و الفلسفات في جميع مراحل الفكر البشري، لذلك ليس الدين سوى حالة جزئية وخاصة من المثل العليا النّسكية التي تسرّبت حسب نيتشه إلى كل من الفن و الفلسفة والعلم وحتى إلى الإلحاد نفسه( ). فالكهنة الزهاد تمكّنوا في فترة تاريخية معينة من إلهام العبيد بإحساس عال بالقوة، مكّنهم في الأخير من التفوق على السادة.لقد وعدوا العبيد بالخلاص النهائي إذا هم آمنوا بالله، و طبقوا أوامره، و شعائره، إلى درجة أن عملية قلب القيم ظهرت أولا حسب نيتشه عند اليهود.فهم أوّل من قاموا بثورة العبيد في الأخلاق، كان الخيّر يعني النبيل و القويوالجميل و المحبوب من الله، فأصبح عندهم يعني الضعيف و الوضيع و البائس، و المملوء بالخطايا. ولما كانوا أكثر الشعوب التي عانت من الإضطهاد، بعد زوال دولتهم القديمة، كان من الطبيعي أن تمتلئ نفوسهم بالحقد و الإنتقام، أو ما أصبح يُعرف بـ "الذحل "الذي أدّى تجمّعه و تراكمه إلى حدّ جعلهم يثورون على سادتهم الرومان. فكان بين اليهود و الرومان كفاح قاس، بلغ أشدّ و أعنف صوره في المسيحية، التي ليست في نظر نيتشه سوى صورة من صور اليهودية: إذ هي

وريثتها في القيم، وكبار رؤسائها من اليهود أمثال: القديس بطرس، و القديس بولس( ). لذلك فإن أخلاق العبيد التي بشّروا بها لم تكن سوى رد فعل الضعفاء على الأقوياء، وكانت في أغلبها عدمية، تنكر الحياة وتركن إلى كل ما يعارض الطبيعة الإنسانية. يقول نيتشه: " " تشترك الأخلاق مع الحكم الديني في الإيمان بحقائق ليست في شيء، ليست الأخلاق إلا تفسيرا – أو بتعبير أدق، تفسيرا خاطئا لبعض الظواهر. يوصل الحكم الأخلاقي، مثله مثل الحكم الديني، إلى جهل ينعدم فيه، مفهوم الواقعي نفسه، ينعدم فيه التمييز بين الواقع والمتخيل، بحيث أن الحقيقة لا تمثل على هذا المستوى سوى أشياء نسميها اليوم أوهاما"( ). وفي موضع آخر يقول: "حتى يمكن إزالة الألم الخفي، غير المكشوف، الذي لا شاهد عليه، عن العالم ونفيه نفيا صادقا، كان المرء عندئذ مضطرا تقريبا لاختراع الآلهة و الكائنات الوسيطة، على كل علوّ، وتحت كل غور، شيء ما باختصار، يجوب حتى في غيابة الخفاء، ويرى حتى في عتمة الظلام و ليس شأنه أن يفوّت مشهدا مؤلما على قدر من الأهمية"....أما اليوم فربما نحتاج في ذلك إلى عون اختراعات أخرى مثلا الحياة بوصفها لغزا، الحياة بوصفها مشكلا للمعرفة .( )

ليس الكاهن نمطا دينيا مهدّدا بالانقراض، بل هو آلة قيم تشكّلت بعد تطوّر أخلاقي سحيق القدم طال كل أشكال الحيوانية النائمة في النوع البشري ولازالت إلى اليوم تأكل كل النفوس. و لذلك فإن النقد الحديث الهادف إلى دحض خطاب الكاهن لا يؤثر في شيء على سطوته. إن هذا النقد نفسه ملوّث بعدوى المثل النّسكية، و بهذا المعنى حكم نيتشه على نجاح كانط بأنه نجاح لاهوتي. إن الكاهن لم يعد يتخذ هيئة لاهوتية واضحة، بل صار يسكن كل المثل العليا التي عرفها البشر من الأخلاق إلى الفن ومن الفلسفة إلى العلم. إن الكاهن قد تسلّل ـ بلغة فتحي المسكيني ـ إلى مخبأ " الحاجة إلى المعنى" التي تؤرّق الحيوان البشري، أن تكون لحياته المعذبة معنى. وطالما يفلح الكاهن في توفير المعنى فهو سيستمر في تسميم الحياة وتحويلها إلى تهمة"( )، يقول نيتشه: "لقد كانت الكنيسة الأصلية، كما هو معروف، تقاوم الأذكياء لصالح ضعيفي النباهة، كيف كان سيُنتظَرُ منها حرب ذكية ضد النزوة، إن الكنيسة تحارب النزوة ببترها، بكل معاني الكلمة"( ).إن التأويل الديني يميل إلى الخلط بين التبرير و التأويل، وذلك من خلال الخلط بين الواقع و القيمة، وفي الأخير بين "القطيعة" و" الجماعة". والإمتناع عن التأويل هو إذن الأمر النّسكي الأخطر الذي تمارسه الأديان على الإنسان الأخلاقي الذي تحكم في معنى الوجود، على الأرض منذ بضعة آلاف من السنين، و الهدف الحقيقي لهذه الإرادة المريضة هو تدجين" الألم" و تحويله إلى متعة عدمية تحت التصرّف. و ينبهنا

نيتشه إلى أن دور الفيلسوف في المستقبل هو تعرية المكر النّسكي مهما كان مختبئا( ). صحيح أنه يصعب التخلّص من التأويل الديني، لذلك علينا أن نتحرر منه بتأويل آخر أكثر صحة، فالحياة نفسها تأويل، نزاع غريزي مع المعنى و اللاّمعنى. لذلك علينا أن نفرق بين التأويل الصحي، والتبرير الذي يقوم على عدم التمييز بين "المعنى" و "المعاناة.( )"

لعلّ القصد من هجوم نيتشه العنيف والمتزايد على الأديان مُمَثلة في اليهودية والمسيحية،هو جعل الناس واعين بالمعنى الحقيقي لفكرة "موت الله" وما ينتج عنها. لذلك جاء إصراره قويا على أن يهتم معاصروه بمهمّة إعادة تقييم كل القيم، تلك المهمة التي أصبحت ملحّة ووشيكة الحدوث، باعتبار أن عقل الإنسان الحديث لم يعد قادرا على أن يتحمّل مثل هذه التعاليم التي تبخس الحياة. لذلك تضمّنت محاولته لإعادة تقييم القيم،البحث في طبيعة الأديان، ونفسية مؤسسيها، من جهة دوافعهم الحقيقية، ونواياهم، والحيل التي اعتمدوها لقيادة الناس و خداعهم، و أهدافهم المبيّتة التي تفتقد إلى البراءة. وقد ساعده التحليل الجينيالوجى كثيرا على إثبات أن اليهودية لا تعدو أن تكون مجرّد نسق لأخلاق الحقد، وكراهية الذات، وكل ما فيها مؤسس على الضعف، و الرغبات المظللة التي يسكنها الانتقام. فالحقد لا يمكنه إطلاقا أن يكون ينبوعا لأخلاق إرادة القوة، لأن مصدره الشعور بالعجز، لذلك هو مجرّد رد فعل على واقع معين، في حين أن أخلاق السادة، تعود في نشأتها إلى الإرادة التي تسعى إلى توكيد ذاتها، وشعورها المفعم بالانتصار.

يريد نيتشه أن ينبهنا إلى ضرورة توفر حرية الإنسان كشرط أساسي لوضع القيم، فإذا هو حطّم جميع القيود، والأوهام الناتجة عن المذاهب الأخلاقية و الدينية و الفلسفية، تمكّن من الاعتماد على نفسه، ومن ثم الشعور بالحياة و القوة التي بفضلها يستطيع إدراك الوجود على نحو أصح، فالحياة هي النمو، و التطور، الصيرورة، ولا علاقة لها بما تبشر به الأديان والفلسفات المثالية التي تقتات على طاولة الميتافيزيقا.

خاتمة:

ما نصل إليه من خلال هذا المقال أن العقل الذي مثّل في الفلسفة الحديثة أساسا وحيدا للمعرفة بكل فروعها من خلال ما يملكه من مبادئ فطرية أو قبلية، تساعده على بلوغ الحقيقة، بل كانت له اليد الطولى، والسلطة المطلقة، في جميع المجالات المعرفية والسياسية، حتى أصبح الإله الجديد في عصر التنوير، قلت هذا العقل صار متهما في فلسفة نيتشه، وقدّمه للمحاكمة، رفقة الدين، ومن ثم كانت الفلسفة الغربية المعاصرة عند نيتشه هي فلسفة تاريخ محاكمة هذا العقل من حيث هو ملكة التفكير من جهة، وأداة معرفة من جهة أخرى.وحين يصبح العقل موضع سؤال فإن الإنسان بأكمله هو الآخر يصبح إشكالا كبيرا في الفكر الإنساني ككل. ومعنى هذا أنه لا

بد لنا من عملية حفر واسعة في فلسفتنا الإسلامية الكلاسيكية، قصد استصلاح ما بقي من نصوص قادرة على تأمين الإنتقال إلى مرحلة التقدم و التطور، واستئناف أهم القضايا الكبرى التي تضطلع بها أنفسنا الجديدة، وهذا هو دور الفكر العربي المعاصر في الوقت الراهن، فالغرب يُراجع نفسه باستمرار، و لا يتردّد في محاكمة أدوات معرفته وقيمه باستمرار، ويعود إلى محطاته الفكرية كلما يقع في أزمة، وعلينا نحن أيضا أن نقوم بذلك حتى ننخرط في كل ما هو كوني، ونشارك كندّ حقيقي في نادي الإنسانية.

قائمة المراجع

(أنظر: لالالند(أندريه)، موسوعة لالاند الفلسفية(2001) ترجمة خليل أحمد خليل، ج3، منشورات عويدات، بيروت،ط2،. ص ص 1159-1160

(المصدر نفسه. ص 1161

(Encyclopedia of Philosphy., Borchert (editor in chief). P: DonaldM. 279.

(الفارابي ، رسالة في العقل(1983) دار المشرق – بيروت- الطبعة الثانية. ص ص:3-5.

(المرجع نفسه. ص ص: 7-8.

(المرجع نفسه. ص ص:8-9.

(المرجع نفسه. ص ص:9-10.

(المرجع نفسه. ص:12.

(ديكارت(رونيه)، قواعد لتوجيه الفكر(2001)، ترجمة سفيان سعد الله، سراس للنشر،تونس. ص90

(لالالند(أندريه)، موسوعة لالاند الفلسفية. ص 1161

(كنط(عمّانوئيل)، نقد العقل المحض(1988) ترجمة موسى وهبه، مركز الإنماء القومي، لبنان، ط1. ص ص 26-27

(عثمان أمين، رواد المثالية في الفلسفة الغربية(1967)دار المعارف مصر. ص 62

(المرجع نفسه. ص 54

(كنط،(عمّانوئيل) نقد العقل المحض، مرجع سابق. ص52

(المصدر نفسه، الصفحة نفسها

(أنظر نتشه، أفول الأصنام(1996)،ترجمة حسان بورقية، محمد الناجي، ط1، إفريقيا الشرق. ص 43

(المصدر نفسه، ص ص 26-27

(عبد الرزاق الدواي، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر(1992)، دار الطليعة للطباعة و النشر،ط1، لبنان.ص 35

(جيل دولوز، نتشه(1998)، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، لبنان ،ط1،. ص72

(جيل دولوز، نتشه، مرجع سابق.ص 30

(فريدريك نيتشه. عدو المسيح. ترجمة جورج ميخائيل ديب. دار الحوار.ط2. ص 71

(فريدريش نيتشه. ما وراء الخير و الشر. ترجمة موسى وهبة. دار الفارابي. ص 97

(فؤاد زكرياء. نيتشه. دار المعارف بمصر. ط 2. ص 135

(فريدريك نيتشه. عدو المسيح. ترجمة جورج ميخائيل ديب. دار الحوار.ط2. ص 58

(المرجع نفسه. ص 71-72

(المرجع نفسه. ص 72

(المرجع نفسه. ص 78

(المرجع نفسه. ص 80

(فريدريتشنيتشه. في جينيالوجيا الأخلاق. ترجمة فتحي المسكيني.مراجعة محمد محجوب. دار سيناترا المركز الوطني للترجمة تونس 2010.ط1. المقدمة.ص 9

(فريدريك نيتشه. أفول الأصنام. ترجمة حسان بورقية، محمد الناجي. إفريقيا الشرق 1996.ط1. ص 32

(فريدريتشنيتشه. في جينيالوجيا الأخلاق. ترجمة فتحي المسكيني. ص 24

الذحل هو الشعور المتكرر بإساءة سابقة لقيها الإنسان، ولم يستطع أن يردّها و يتشفّى ممن قدّمها، لعجز فيه عن رد الفعل في الحال، فتراه يتذكرها من بعد، ويجترها من حين لآخر، مما يزيد في قوة هذا الشعور، ويضاعف من طاقته، ولا يلبث أن يتجمّع و يغلي في نفس صاحبه فيقوم برد فعل غير طبيعي، بلجوئه إلى وسائل ملتوية، وطرق خفية غير مباشرة(أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ج2، ص 512)

(عبد الرحمن بدوي. موسوعة الفلسفة،ج2، المؤسسة العربية للدراسات و النشر بيروت 1984.ط1. 512-513

(فريدريك نيتشه. أفول الأصنام. ترجمة حسان بورقية، محمد الناجي. إفريقيا الشرق 1996.ط1. ص 57

(فريدريتشنيتشه. في جينيالوجيا الأخلاق. ترجمة فتحي المسكيني. ص 95-96

(المرج نفسه. المقدمة.ص 16

(فريدريك نيتشه. أفول الأصنام. ص 36

(فريدريتشنيتشه. في جينيالوجيا الأخلاق. ترجمة فتحي المسكيني. المقدمة.ص 17

(المرجع نفسه. المقدمة.ص 16